شارل سينبوس: رائد مدرسة المناهج التاريخية «الوثائقية» (1854 - 1942م)

أ . نبيل زاوي
(طالب دراسات عليا)

مقدمة:

توصلت الشعوب أن تنتقل من الكتابة التاريخية العامة والتي تعد صورة من صور النهضة والرقيّ في حياة الشعوب وشكل من أشكال التّعبير عن الإبداع ، إلى تأسيس مدارس ومناهج تاريخية تعنى بإرساء قواعد وأسس الكتابة والتأريخ ، أصبح يطلق عليها فيما بعد باسم المدارس التاريخية ، والتي اشتهرت بها أروبا على وجه العموم وألمانيا على وجه الخصوص. ولقد ساهم في بناء سرح هذه المدارس كوكبة من المؤرخين البارزين استطاعوا بذلك أن يضعوا الأسس الحقيقية للبحث في التاريخ وأعماقه ، وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الفرنسي شارل سينابوس الذي يعد واحد من الأعمدة الرئيسية لمدرسة المناهج التاريخية (المدرسة الوثائقية) الفرنسية العريقة .

1 - تأسيس مدرسة المناهج الفرنسية وانعكاساتها على الكتابة التاريخية :

مر مفهوم التاريخ بمراحل كبرى شأنه في ذلك شأن أي معرفة إنسانية تتطور وتتغير مع تطور حياة الإنسان ، ومع حلول القرن 19 م وبفعل التحولات الاقتصادية و الاجتماعية و الفكرية التي شهدتها أوروبا على وجه التحديد ، اندفع الكثير من المؤرخين و فلاسفة التاريخ إلى التفكير في مفهوم التاريخ ، فظهرت كنتيجة لذلك تفاسير جديدة للتاريخ الذي توسع مفهومه و أصبح أكثر شمولية بعدما كان محدود النظرة و المنهج يهتم فقط بسرد الأخبار و الوقائع السابقة. [1]

وعليه فقد شهدت أوروبا والغرب بشكل عام ميلاد عدة مدارس تعنى بالعلوم الإنسانية ، من ضمنها تلك المتعلقة بالتاريخ والتأريخ وفق مقاييس حديثة. أي أن فكرة قيام هذه المدارس الغربية كان على أساس تجاوز نمط الكتابة التاريخية العامة الكلاسيكية واللجوء إلى اعتماد أنماط جديدة سواء في اختيار المواضيع والمناهج وخاصة الأدوات . [2]

وشيئاً فشيء بدأت مناهج البحث التاريخي تتطور و تتقدم نحو مزيد من العلمية و المنهجية في الكثير من الجامعات الأوروبية ، كما ظهرت مدارس و اتجاهات تاريخية متعددة لعل أهمها

« المدرسة الوثائقية» التي تأثر روادها بالفلسفة الوضعية التي سادت أوروبا خلال ق19 م[3]. فقد دعا رواد هذه المدرسة إلى ضرورة اعتماد الوثيقة في كتابة التاريخ « فالتاريخ يصنع بالوثائق و لا تاريخ بدون وثيقة » حسب اعتقاد مؤرخي تلك المرحلة لانجلو[4] و سينبوس .

لكن ومع مطلع القرن20 م أصبحت المدرسة الوثائقية عرضة للكثير من الانتقادات الشديدة من قبل جيل جديد من المؤرخين الشباب في فرنسا على وجه الخصوص لوسيان فيفر[5] و مارك بلوك[6] اللذين نفخا روح جديدة في الدراسات التاريخية حيث استغلوا « مجلة التركيب « لتوجيه انتقادات شديدة للوضعيين ، الذين اتهموهم بالتركيز في كتابة التاريخ على الوثيقة التاريخية بمفهومها الضيق ونادوا بضرورة انفتاح الدراسات التاريخية على العلوم الأخرى و المساهمة أكثر في كتابة التاريخ اللغوي والأدبي والجغرافي والقانوني والطبي وغيرها من التخصصات . [7]

إن نظرة الثنائي لوسيان فيقر و مارك بلوك إلى الكتابة التاريخية على أنها طرح للمشكلات الكبرى للإنسان في سياق الزمن التاريخي الطويل ، جعلت من التاريخ علم ينفتح أكثر على العلوم الأخرى سواء الإنسانية منها أو الدقيقة ، نتج عن كل ذلك تمكن المؤرخين من استخدام أدوات بحث جديدة ،جعلتهم يعيدون النظر في كثير من الوقائع التاريخية و يطرحون أسئلة جديدة و مشكلات تاريخية لم تكن إلى عهد قريب في متناول المشتغل في التاريخ . [8]

◄ 2 - تأثر المدرسة التاريخية الفرنسية بالمدرسة التاريخية لألمانية :

تدين المدرسة التاريخية في فرنسا في تطورها إلى حد ما إلى تأثير المدرسة الألمانية عليها ، وخاصة إذا علمنا أن رواد المؤرخين الفرنسيين تلقنوا المبادئ العلمية الأساسية الأولى على أيدي أساتذة ألمان على أنه يمكن القول كذلك بصفة عامة أن تقدم المدرسة التاريخية الفرنسية يرجع في مجمله إلى الظروف المحلية في فرنسا ذاتها ، بحيث تمكنت المدرسة الفرنسية وبفضل جهود أوائل روادها بإرساء دعائم منهجية البحث في علم التاريخ وبذلك تخرج منها المئات من المؤرخين وعبر فترات عديدة لعل أهمها فترة التاريخ الحديث التي تميزت بظهور مؤرخين كبار تخصصوا في مجالات تاريخية عديدة وعالجوا مواضيع تاريخية مختلفة فمنهم من تخصص في تاريخ الروماني ومنهم من اهتم بالتاريخ الكنسي وبعضهم أصبح يعرف بالمختص في تاريخ الشعوب الأوروبية القديمة وهكذا دواليك . [9]

◄ 3 - المؤرخ شارل سينبوس حياته العلمية وإسهاماته الفكرية :

أ ـ التعريف به :

ولد المؤرخ الفرنسي شارل سينوبوس في 10 سبتمبر 1854 في مدينة _لماستر_ ولاية اردیش الفرنسية ، حيث شغل والده منصب رئيس مجلس بلدية لماستر سنة 1892 ، زاول شارل دراسته في المدينة التي تربى فيها وتحصل على شهادة البكالوريا سنة 1871، ليتوجه بعدها إلى معهد الدراسات العليا ويتخصص في الدراسات التاريخية ، ثم توجه إلى ألمانيا وبالضبط إلى مدينة _ قوتنيقن_ في برلين ودرس في جامعاتها مدة عامين .

وفي سنة 1879عين كأستاذ محاضر في جامعة جون الألمانية تخصص « الدراسات العلمية والعالمية والسياسية « ، ليتحصل على الدكتوراه سنة 1881 ويعين كأستاذ في جامعة السربون بفرنسا ، توفي المسيو شارل كما كان يلقب من قبل زملائه في أفريل سنة 1942 بعد مسار طويل حافل في الكتابة والتأريخ في علم التاريخ . [10]

ب _ إسهاماته :

يعد شارل سينوبوس من مؤسسي مدرسة المناهج الفرنسية بحيث تعد نقطة التحول في مساره ألتعلمي زيارته وإقامته في ألمانيا وبالتحديد في مدينة برلين أين استطاع أن يصقل ثقافته التاريخية

ويبدع بعدها في إرساء قواعد الكتابة التاريخية ، مما جعل كتاباته وأعماله تعد إسهاماً فعلياً أرست قواعد المدرسة الوضعية في فرنسا ، والتي ازدهرت طوال فترة الجمهورية الثالثة 1870_1940.

تمثلت أولى إسهاماته العلمية في ميدان الكتابة التاريخية في إنشاء _الدليل_ الذي كان تابع للمجلة التاريخية التي كان يكتب فيها المؤرخ الكبير مونود ، واعتبر الدليل منهاج خاص بالباحث التاريخي كتبه هو وزميله لا نجلو 1898 . [11]

يعد « الدليل « عمل تقعيدي لمدرسة المناهج يذكر فيه سينبوس طرائق وأساليب العمل والاشتغال في حقل التاريخ ، إضافة إلى تقديم منهجية للباحثين والطلاب والمؤرخين والأكادمين في علم التاريخ . واستطاع بعدها المسيو شارل كما كان يلقب بالتعاون مع زميله لانجلو تأليف كتاب جامع يخص قواعد تطبيق علم التاريخ والذي صدر سنة 1898 تحت عنوان _ المدخل إلى الدراسات التاريخية _ تخصص لانجلو في فترة تاريخ القرون الوسطى الأوروبية أما شارل فتخصص في مرحلة العصور الحديثة ووضع مجموعة من الكتب المدرسية الموجهة للتعليم الثانوي . [12]

◄4 - أسلوب الكتابة التاريخية عند السينبوس :

ينطلق المؤرخ شارل سينوبوس من فكرة ألامبالاة والاحتقار أحيانا لكل من :

_ ميتولوجيا التاريخ - الخيال - ، فلسفة التاريخ كاهيجل وكونت وخاصة طريقة تناول التاريخ بأسلوب أدبي . كما نجده ينتقد بحدة مفهوم _ العناية الإلهية _ التي استخدمت في حقبة من الحقب في تفسير الوقائع واعتبر مؤلفه _ المدخل إلى الدراسات التاريخية _ المثال الحقيقي للقطيعة الايبستيمولوجية مع كل من نظرية العناية الإلهية في التاريخ من جهة ، والتطورية العقلانية والغائية الماركسية من جهة أخرى . [13]

يعتقد السينبوس أن التاريخ ليس إلا وضعية عمل بالوثائق» mise en œuvre de document» . وبتالي فبالنسبة له الوثيقة هي الوسيلة الوحيدة الحاملة للوقائع التاريخية ، أما عمل المؤرخ استدلالي ، أي أنه ينطلق من معطى الوثيقة ليصل إلى الحقيقة .

و يقدم سينبوس منهجية في دراسة الوثيقة تبنى على : (النقد الخارجي ، النقد الداخلي ، مرحلة الربط ، تحديد وظيفتها...) . كما يقسم الوقائع التاريخية إلى ستة أصناف : (الظروف المادية كدراسة علم الإنسان أو الأجناس ، العادات والتقاليد كاللغة والفن والدين ، العادات المادية كالغذاء والعمل

والمراسيم الاجتماعية ، العادات الاقتصادية كالإنتاج الصناعة والزراعة ، النظم الاجتماعية كالأسرة والتربية ، النظم العامة كالسياسة الحاكم والحرب. [14]

والسهولة في كتابته . [16]

◄5 - اقتباسات من أقواله :

*التاريخ ليس إلا وضعية عمل بالوثائق .

*التاريخ يصنع من الوثائق و الوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم .

*لا بديل عن الوثيقة وحيث لا وثائق فلا تاريخ .

*يختلف منهج علم التاريخ اختلافا أساسيا عن منهج العلوم أي أنني اعني أن منهج العلوم يعتمد على الملاحظة المباشرة أما علم التاريخ ليس علم ملاحظة مهما قيل فيه .

*إن الأفعال الإنسانية التي تألف مادة التاريخ تختلف من عصر إلى عصر وبلد إلى أخر ،كما اختلفت الشعوب والجماعات والموضوع الحقيقي للتاريخ هو دراسة هذه الاختلافات . [15]

6 _ تقديم كتابه « تاريخ حضارات العالم» :

يعد كتابه هذا مصدرا أساسيا لدارسي الحضارات التاريخية وخاصة الشرقية منها ، حيث تطرق من خلاله إلى تقديم عرض خاص بالحضارات التي أثرت على كل أمة من الأمم ، منذ أن عرف التاريخ إلى يومنا هذا وتكلم كثيراً حول موضوع الشعوب الشرقية القديمة ، كالمصريين والفينيقيين والبابليين والأشوريين والفرس وحتى اليهود .

كما أنه خصص فصول وكلام مطول حول مدن اليونان والرومان ، واعتمد في دراسته على مئات من المصادر والكتب لانجاز مؤلفه ، وتوخي الإيجاز

الهوامش

1 - وجيه كوثراني ، تاريخ التأريخ ، المركز الوطني للدراسات والأبحاث ودراسة السياسيات ، الدوحة ، قطر ، ط 2 ، 2013 ، ص ص -165 166.

2 - وجيه كوثراني ، نفسه ، ص 167 .

3 - هاري المربارتز، ترجمة : محمد عبد الرحمان برج ، تاريخ الكتابة التاريخية ، ج 2 ، دار الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، ص ص -57 58.

4 – مؤرخ فرنسي ولد في 26 ماي 1863بمدينة رون بباريس ، درس في معهد الوثائق ، ليتخرج بعدها كمختص في الدراسة الأرشيفية 1885، توجه بعدها إلى المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ، حيث تحصل خلالها على شهادة الليسانس في الأدب و القانون ، ليتخصص بعدها في التاريخ حيث تحصل على شهادة الدكتوراه 1887 من جامعة السوربون ، عين كأستاذ في جامعة السوربون ، ويعد لانجلو واحد من المؤرخين الكبار الفرنسيين الذين ارسوا معالم المدرسة التاريخية المنهجية ، توفي سنة 1929 بباريس .

5 – مؤرخ فرنسي ولد في 22 جويلية 1878 في مقاطعة نانسي الفرنسية ، درس في المدرسة العليا سنة 1899 تخصص أدب ، أصبح بعدها أستاذ بجامعة ستراسبورغ سنة 1919 ، ويعد من أعمدة الكتابة التاريخية ومن مؤسسي مدرسة الحوليات التاريخية ، أسس مع زميله مارك بلوخ « المجلة التاريخية » التي تعنى بالبحث في العلوم الإنسانية ، نقد في كتاباته وبحدة مدرسة المناهج التي أرسى دعائمها لانجلو و السينبوس ، توفي سنة 1956 بفرنسا .

6 –مؤرخ فرنسي ولد في 6 جويلية 1886 بمدينة ليون الفرنسية ، أستاذ التاريخ في كلية ستراسبورغ منذ سنة 1911 ، واحد من مؤسسي مدرسة الحوليات التاريخية مع زميله لوسيان فيفر التي تعني بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، وتدعوا بالتالي تجاوز النمط الكلاسيكي في كتابة التاريخ (مدرسة الوثائق) ، توفي بلوخ سنة 1941 .

7 – هاري المربارتز، المرجع السابق ، ص 59 .

8 - Charles-Victor Langloi et Charles Seignobos , INTRODUCTION aux ÉTUDES HISTORIQUES , Édition numérique . paris , p .6.

9 - محمد شوقي ، الهوية والذاكرة ، مجلة يتفكرون ، العدد الرابع ، 2004 ، ص 74 .

10 - وجيه كوثراني ، نفسه ، ص 168 .

11 - هاري المربارتز، المرجع السابق ، ص 59 .

12- وجيه كوثراني ، نفسه ، ص 169 .

13 - محمد شوقي ، المرجع السابق ، ص 74 .

14 - وجيه كوثراني ، نفسه ، ص ص 171 – 173 .

15 - Charles-Victor Langloi et Charles Seignobos. Op.cit , p 7.

16 - شلرل سينوبوس ، ترجمة: محمد كرد على، تاريخ حضارات العالم ، ط 1 ، دار العالمية للنشر ، د ر ط ، مصر ، ص 7 .